الفصل الرابع

الناصرية .. التيار الخامس

(وليست مجرد فصيل أو جزءًا من التيار القومي)

obeikandl.com

obeikandl.com

«الناصرية الانطلاقة الخصبة الأولى لفكرة العروبة وفكرة الوحدة. وكانت المواجهة الحقيقية الأولى مع الاستعمار.

ثم كانت الفترة الناصرية، فترة إبداع وابتكار تاريخي على طول الساحة.

تحولت المبادرة التاريخية إلى أيدي العرب، وتحول الغرب للمرة الأولى للدفاع.

الناصرية هي الظاهرة الوحيدة التي برزت وقدمت للعرب شيئًا مهمًا جدًا جدًا، ويمكننا اليوم بثقة متابعة طريقها ومسيرتها.

بالنسبة لي إن عبد الناصر عملاق.

فالناصرية في تعريفها هي الوقفة العربية الأولى الصامدة الشجاعة أمام الغول الذي اسمه الاستعمار، وهذه الوقفة ما زالت مطلوبة وقائمة ومستمرة وضرورية لأن الاستعمار ما زال موجودًا.

أحمد بن بيلا[21]

(21) من كتاب «أحمد بن بيلا: حديث معرفي شامل». إعداد محمد خليفة (دار الوحدة للطباعة والنشر - بيروت - 1985)

obeikandl.com

عرفت مصر والوطن العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين الميلادي أربعة تيارات سياسية ـ فكرية أساسية:

الأول: التيار الليبرالي ـ الرأسمالي

الثاني: التيار السياسي الإسلامي

الثالث: التيار اليساري الماركسي

الرابع: التيار القومي التقليدي

ومنذ انتصاف القرن العشرين بزغ التيار الثوري الناصري تيارًا خامسًا.

وقد نبع هذا التيار من الواقع وضروراته، كإجابة عن أسئلته، واستجابة في مواجهة تحدياته، حتى وصل إلى بلورته وصياغته الحالية، بما انتهى إليه مؤسسه جمال عبد الناصر القائد العملي (النضالي)، والنظري (الأيديولوجي) لثورة 23 يوليو 1952، وبما بلغه المنتمون إلى هذا التيار، بادئين من حيث انتهى القائد التاريخي المؤسس.

وهنا قد نصل ـ بالأحرى نبادر أو نبدأ ـ بمسألة مهمة. دقيقة.

إن الناصرية في اعتقادنا ليست هي هذا «التيار القومي» (التيار الرابع).. كما يتردد باستمرار، وكما دأب على القول كثيرون، بل وناصريون بسبب التكرار!.

إن الناصرية هي: التيار الخامس.

والناصرية في حقيقتها هي على عكس الخطأ الشائع أو الشهير، الذي عادة ـ اعتيادًا أو استسهالاً ـ يدرجها ضمن «التيار القومي»، ويعتبرها جزءًا منه أو مكونًا أو فصيلًا.

فالمؤكد أن لدى الناصرية مشتركات أساسية مع التيار القومي ـ الأسبق في الوجود على ظهور التيار الناصري ـ مثلما أن لدى الناصرية مشتركات أساسية مع غيرها من التيارات.

obeikandl.com

كما أن «البعد القومي/ أو العروبي/ أو الوحدوي» ليس وحده هو ما يميز الناصرية، وإنما هو ضمن ما يميز الناصرية.

وإذن ما الناصرية؟.

الحق: إن الناصرية هي الناصرية.

وهي لديها ما تشترك فيه مع غيرها من التيارات، وما تتمايز به عنها ـ كلها ـ في ذات الوقت.

كما أن الناصرية ليست هي «حاصل جمع» هذه المشتركات، بل هي «ناتج تفاعل»: ليس فحسب بين هذه المشتركات وحدها، وإنما بالإضافة إليها ما تتمايز به الناصرية وتختص به وتضيفه، بل وعلى المدى ما تتطور به عبر المراحل والمواقف، (وأيضًا المواقع بين ظرف بلد عربي وآخر)... وما تجدد به نفسها.

أي ما نؤثر أن نطلق عليه: تجديد الفكر الناصري.

وهو (تجديد الفكر الناصري): ضرورة، بل ضرورة مستمرة.

ذلك ككل ـ أول ما أسلفنا لتونا ـ هو على النحو الذي سوف نبينه ونفصله، في هذا الفصل.

ككل جهد واجتهاد إنساني تبادل التيار الخامس (التيار الناصري) التأثير والتأثر مع غيره من الجهود والاجتهادات النظرية الأيديولوجية، وقد استفاد كما أفاد، في علاقته بالتيارات الأربعة التي سبقته:

1. إن أقرب نقطة (وقضية) التقى فيها التيار الثوري الناصري مع التيار السياسي الإسلامي هو الموقف الإيماني، وهي ذاتها أبعد نقطة (وقضية) ابتعد فيها، فلسفيًا ومنهجيًا، التيار الثوري الناصري عن التيار اليساري الماركسي.

وكما يقول محمد حسنين هيكل في كتابه عن جمال عبد الناصر ـ عام 1972 ـ بعنوان «عبد الناصر والعالم» (الذي يبقى في نظرنا من أعظم الكتب عن

obeikandi.com

عبد الناصر ودوره وعصره، إن لم يكن أعظمها، على غزارة ما صدر عنه ولا يزال بالعربية وبمختلف اللغات):

«عندما هرب «المانيفستو» الشيوعي إلى مصر أحدث شيئًا من الإثارة، فقد قرأه المثقفون وظنوا أنهم عثروا على مفتاح يمكن أن يفتح لهم جميع الأبواب السياسية والاجتماعية، وانجذب الرئيس عبد الناصر نفسه إلى الأفكار الشيوعية لكنه نبذها في النهاية، كمنهج للحياة لسببين: القومية.. والدين.

وقد درج على مناقشة الشيوعيين على هذا النمط.

«إنني أسلم بحقيقة العالم المادي. ولكن كيف نشأت الحياة إذن؟ ربما كنت مستعدًا للتسليم بنظرية النشوء والارتقاء على أنني أريد أولًا أن تخبروني» كيف نشأت الأرض؟ وكيف نشأ الكون؟، وإلى أن تفعلوا ذلك سأظل مؤمنًا باللّه»[22].

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه، ترد مناقشة (أو محاورة حامية) في مصر، بين الزعيم السوفييتي خروشوف من ناحية، والرؤساء العرب عبد الناصر وبن بيلا وعبد السلام عارف من ناحية، وضمن ما قاله فيها عبد الناصر لخروشوف:

تقول إن هناك وحدة واحدة هي وحدة الطبقة العاملة. إذن كيف تستطيع أن تفسر حقيقة التخاصم الحالي بين الاتحاد السوفييتي والصين، وهما الدولتان اللتان تحكم فيهما الطبقة العاملة؟

هل تذكر، كيف حدثتني عن الحرب (العالمية الثانية). إنك تسميها الحرب الوطنية العظمى. فلماذا؟ لماذا لا تسميها الحرب الأيديولوجية العظمى؟ أعتقد ـ بالحكم والاستناد إلى ما قلته لي ـ أن السبب هو أن الحرب كانت أكبر من الحزب.

(22) هيكل ـ عبد الناصر والعالم ـ دار النهار للنشر ـ بيروت 1972، ص 34.

«لقد كانت الوطنية هي التي تصدت لتحدي هتلر وجابهته...»[23].

كذلك يقول يفجيني بريماكوف رئيس الوزراء الروسي الأسبق ـ في كتابه المهم للغاية «الشرق الأوسط .. المعلوم والمخفي»:

«كان جمال عبد الناصر يرى أن «الاشتراكية العربية» غير قابلة للامتزاج .. لا مع ديكتاتورية البروليتاريا، ولا مع نفي الدين»[24].

أما التيار السياسي الإسلامي فبقدر اقتراب التيار الثوري الناصري منه في القضية الإيمانية، افترق وتنائى عنه ـ إلى حد التباين والتضاد الكامل ـ في جوانب أساسية يتسم بها ويعرف، كتيار «إسلام شكلي»، وكتيار يجنح يمينًا ورأسماليًا في جوهره، في القضية الاجتماعية ـ الاقتصادية، بوضوح تام ومهما تخفى أو تقنع بمفردات من قاموس أو تراث، تبدو ذات صلة ـ أو «تتمحك» ـ بالشريعة الإسلامية، أو الفقه الإسلامي.

2 ـ هذا بينما كانت أقرب نقطة (وقضية) التقى فيها التيار الثوري الناصري، مع التيار اليساري الماركسي، هي قضية العدالة الاجتماعية.

بل إنه ثار جدال مشهور في مصر أواسط ستينيات القرن العشرين، في عنفوان الثورة الناصرية ـ عمليًا ـ وأوج الثورية الناصرية ـ فكريًا ـ حول: نحن نختلف مع مفاهيم غيرنا كالماركسيين في الاشتراكية، لكن هل يكون ذلك إلى حد اعتبارنا: (الاشتراكية العربية)، أم أنه ليس إلى هذا الحد؛ إذ نحن نمثل: (الطريق ـ أو التطبيق العربي للاشتراكية)؟.

وقد انحاز جمال عبد الناصر إلى الموقف الثاني.

وقال مثلًا (في مؤتمر المبعوثين 1966/8/6):

(23) المصدر نفسه ص 213.

(24) الترجمة إلى العربية عن دار إسكندرون ـ دمشق 2006، ص 20.

«الاشتراكية عمومًا هي القضاء على استغلال الإنسان للإنسان. ولكن التطبيق الاشتراكي في كل بلد يختلف عن البلد الآخر... وفيه ناس بتحب تسميها الاشتراكية العربية، على أساس إن دي اشتراكية لها طابع خاص... أنا رأيي هي تطبيق عربي للاشتراكية مش هي اشتراكية عربية.. أعتقد إن فيه اشتراكية واحدة، وفيه مبادئ للاشتراكية».

كما يشير إلى تجارب الاشتراكية في بلدان أخرى، فيقول (في المؤتمر الصحفي الدولي الثالث 1/10/1963):

«في رأيي أن كل فرد يتحدث عن الاشتراكية، يتكلم وهو يقصد العدالة الاجتماعية.. أي أن يكون لكل فرد حق في ثروته. طبعًا هذه الدول تأثرت بنا ونحن أيضًا تأثرنا بها. هذه التجارب الإنسانية والاجتماعية تأثرت بثورة الجمهورية العربية المتحدة، وتأثرت هي أيضًا بالثورات الأخرى..».

وواقع الأمر أنه قد اختلف بوضوح وتمايز بجلاء (الطريق ـ التطبيق الناصري للاشتراكية)، عن أي طريق أو تطبيق آخر، إلى حد أنه درج على وصفه بحق في القارات الثلاث التي اتخذته مثالاً هاديًا ملهمًا ـ والعالم ككل ـ إزاء كل من التطبيق الماركسي للاشتراكية، والطريق الرأسمالي، بأنه «الطريق الثالث»، كما نؤكد: إنه دقيق موضوعي بحق أن (جمال عبد الناصر هو رائد الطريق الثالث).

ومع ذلك فمن قال أنه لم يحدث تأثر متبادل، بين الرؤية الفكرية لعبد الناصر، والرؤى الفكرية لماركسيين، سواء كانوا أصدقاءً له أعزاءً كبارًا في العالم مثل الزعيم اليوغسلافي تيتو والزعيم الصيني شواين لاي، أو كانوا مفكرين مصريين وعرب متميزين.

لقد حدث مثل ذلك التأثر المتبادل، لأنه الأمر الإنساني الطبيعي السوي.. والصحي الوحيد!.

وحتى في مسألة أساسية، اختلف فيها فكر عبد الناصر، مع فكر الماركسيين كمسألة القومية العربية، نجد أسماءً بارزة يعتد بمكانتها وقيمتها من المفكرين الماركسيين تتأثر بدورها برؤية عبد الناصر الفكرية، مثل المفكر المصري الماركسي الكبير د. فؤاد مرسي، الذي يعود حتى لمناقشة مسألة القومية مجددًا في كتاب خصصه لها ـ بعد رحيل عبد الناصر بعقدين ـ تحت عنوان «نظرة ثانية إلى القومية العربية»، والكتاب دفاع حار عن دعوة القومية العربية، بقدر ما هو رسالة على أساس تحليل علمي راقٍ وشامل. ويتحدث في أكثر من مرة بإعجاب عن دور ثورة يوليو وقائدها في هذا المجال، فيقول مثلًا:

«.. وحملت ثورة يوليو بقيادة «جمال عبد الناصر» لواء الدعوة للقومية العربية في هذا الطور الجديد من الثورة المصرية. إن مصر التي حققت وحدتها القومية وحققت استقلالها الوطني وسارت في طريق التقدم الاجتماعي كانت هي المؤهلة لاعتبارات موضوعية عديدة لقيادة حركة القومية العربية التي صارت حركة وطنية معادية للإمبريالية والصهيونية واكتسبت طبيعة اجتماعية واضحة. فإنها لم تعد تأمل في أن تتحقق إلا بقوة الجماهير العربية الكادحة وتحت قيادة طلائعها التقدمية. وتحولت عملية إنجاز القومية العربية من مهمة بورجوازية إلى مهمة اشتراكية»[25].

كما يقول مثلًا:

«انطلقت الدعوة الجديدة للتوحيد القومي. وأصبح المشروع القومي العربي مشروعًا للتوحيد القومي وليس مجرد مشروع للنهوض العربي. واستند المشروع القومي العربي هذه المرة إلى الثورة المصرية وقائدها «جمال عبد الناصر». وأفاد بالتالي من سلطة الدولة في مصر فائدة كبيرة. وتحددت في النهاية معالمه المعاصرة، بوصفه حركة

(25) د. فؤاد مرسي ـ نظرة ثانية إلى القومية العربية ـ كتاب الأهالي رقم 20 ـ 1989، ص 53.

للتحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والتوحيد القومي، حركة قومية ذات مضمون اجتماعي ولها آفاق اشتراكية... وهكذا بينما شهدت الخمسينيات والستينيات من القرن ازدهار هذا المشروع القومي العربي، فإنه قد انتكس في السبعينيات وإلى الآن..»[26].

3. من جهة ثالثة كانت أقرب نقطة (وقضية) التقى فيها التيار الثوري الناصري مع التيار القومي التقليدي، الذي تمثل في أدبيات مفكرين قوميين أو نهج وبرامج أحزاب سياسية (كالبعث)، هي قضية أن الأمة العربية من خليجها إلى محيطها تنتمي إلى قومية واحدة أساسية، وأن هناك من مقومات التاريخ والجغرافيا واللغة، الحضارة والثقافة، النضال المشترك والمصلحة المشتركة والمصير الواحد، منذ زمان بعيد في الماضي وفي الواقع الحاضر والمستقبل جميعًا، مما يؤكد وجود هذه القومية العربية، وتبلورها، ورسوخها.

وإنه إذا كانت «القومية العربية» واقعًا لا يمكن ـ علميًا وعمليًا ـ إنكاره أو التشكيك فيه، فلا بد بناءً عليها من «الوحدة العربية»، بمعنى تحويل الواقع العربي «المجزأ» إلى وحدة سياسية ودولة عربية واحدة ـ بصرف النظر عن الصيغة وعن الطريقة ـ هذه الوحدة العربية هي واقع بالطبيعة وبالضرورة ينبغي أن يتأسس ويقوم.

ولم يكن الأهم لدى جمال عبد الناصر مجرد رفع الشعار وترديد أهداف النضال العربي فيه (الحرية ـ الاشتراكية ـ الوحدة)، وقد اختلف مع حزب وقادة «البعث» في ترتيب هذه الأهداف، لأسباب موضوعية وتحليل علمي ـ وليس هنا موضع هذه المناقشة مع اعتبارها ضرورية ومفيدة بالفعل ـ إنما كان الأهم لديه هو تحديد مفهوم كل هدف.

وفي تحديد هذه المفاهيم اقترب وتباين مع جهات وتوجهات عربية عدة ـ وليس «البعث» وحده ـ تنتمي إلى التيار القومي التقليدي. واعتبر عبد الناصر أن التأكيد

(26) المصدر السابق ص 69.

على هذه القضية (أي المفاهيم) هي أحد أبرز الدروس المستفادة من التجربة الوحدوية المصرية ـ السورية، بكل الإيجابي الباقي فيها وكل القاسي المتبقي منها.

يقول (في خطاب عيد الوحدة 22 فبراير 1967):

«هناك ترابط كبير بين الاشتراكية والوحدة.. ولذلك فإننا نقول باستمرار، إننا لن نتحد أبدًا مع أي بلد عربي إلا حين يطبق الاشتراكية.. ويعلن ماذا يعني بالاشتراكية.. وبذلك لا تتعرض الوحدة للخطر.. لأن تطبيق الاشتراكية، وإعلان محتواها، يمنع الانتهازية التي تعلن أنها اشتراكية، ثم تتحالف مع الرجعية، في تسديد الطعنات للوحدة... إن الوحدة معناها الاشتراكية. فلا بد للرأسماليين أن ينقضوا أولاً حتى لا يقعوا تحت بطش الاشتراكية. كما يتصورون أن الاشتراكية تبطش بهم. وهذا ما حدث في تجربة الوحدة الأولى ولذلك سميت الرجعية بالانفصالية، لأن الانفصال حماية للرجعية من الاشتراكية وربما كان انقضاضهم على الوحدة ليس كرهًا في الوحدة: ولكنه كره في الاشتراكية».

لذلك نقول، إن التعريف الدقيق لفكر عبد الناصر ـ «للثورية الناصرية» ـ ليس (الحرية ـ الاشتراكية ـ الوحدة)، بقدر ما هو مفاهيمها المحددة لكل من أهداف الحرية والاشتراكية والوحدة.

كما أن التعريف الدقيق للثورية الناصرية ليس في الأساليب أو الصيغ والفرعيات، فهي يمكن أن تتعدل أو تتغير، إنما في الأصول، في الغاية والجوهر، في كل من الحرية والاشتراكية والوحدة.

وفي قضية الوحدة العربية: فيما نرى على سبيل المثال، فإن طريق الاتحاد الأوروبي يمكن بل يحسن أن يستلهم في هذه اللحظة، عربيًا، ويدرس ويستفاد منه، أكثر من طريق وصيغة «الوحدة السياسية الاندماجية ـ الفورية».

لكن يظل، في كل حال، جوهر الوحدة في الناصرية ومفهومها وطريقها راسخًا... يصيغه الميثاق في بابه الثاني «في ضرورة الثورة»، ويحدد بالقول ساطعًا:

«أصبح طريق الوحدة هو الدعوة الجماهيرية لعودة الأمر الطبيعي لأمة واحدة مزقها أعداؤها ضد إرادتها وضد مصالحها، والعمل السلمي من أجل تقريب يوم هذه الوحدة، ثم الإجماع على قبولها تتويجًا للدعوة والعمل معًا».

وكما يقول «الميثاق» في الباب التاسع «الوحدة العربية»:

«ليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لا مناص من تطبيقها، لكن الوحدة العربية طريق طويل قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولًا إلى الهدف الأخير».

ومن أهم ما يضيفه بعد ذلك، في الباب نفسه:

«إن قيام اتحاد للحركات الشعبية الوطنية التقدمية في العالم العربي أمر سوف يفرض نفسه على المراحل القادمة من النضال».

ونخلص، كما يقول جمال عبد الناصر[27]، إلى أن الأمة العربية خرجت لأخطر المعارك وأشرفها، تطلب الحرية وتلح في طلبها، وتؤمن:

«بأن الحرية الحقيقية هي محتوى اجتماعي يملؤه إطار الاستقلال السياسي، وإذا كان الاستقلال هو حرية أرض من الوجود الاستعماري.. فإن الاشتراكية هي حرية الإنسان من الاستغلال الرجعي الإقطاعي. ثم هي تعمل للوحدة.. مؤمنة بأنها الانتصار التاريخي الكامل، والضمان الأكيد لتثبيت الاستقلال والاشتراكية معًا».

(27) في خطابه المتميز في حفل تكريم رئيس ألمانيا الشرقية أولبرشت 1965/2/24.

4 . حتى التيار الوحيد الذي لم يلتقِ معه عبد الناصر في نقطة (أو قضية) كبرى، اقترب منه عبد الناصر في المراحل الأخيرة، ثم التقى معه الناصريون من بعده في قضية أساسية (قضية الديمقراطية)، وهو التيار الليبرالي.

(وهي القضية التي نخصص لها الفصلين التاليين).

ولقد صارت الناصرية (لدى الناصريين)، بل في وقت مبكر للغاية منذ انتصاف عقد سبعينيات القرن العشرين ـ الذي رحل في مستهله عبد الناصر ـ على توافق أو تلاقٍ مع الليبرالية في شقها السياسي، لكن من دون شقها الاجتماعي الاقتصادي.

أي الاتفاق معها في مجمل الحريات السياسية المعروفة تقليديًا لدى الليبرالية، من (تعدد حزبي وتعزيز استقلال النقابات والتظاهر السلمي والاجتماع والإضراب... إلخ).

لكن من دون الاتفاق معها في شق الحرية الاقتصادية واقتصاد السوق بآلياته وقوانينه المتعارف عليها أيضًا لدى الليبراليين.

واحتفظت الناصرية، لدى الناصريين، كما هي لدى عبد الناصر، بأسس ومعالم «الطريق الثالث» الذي حمل لواءه وكان رائده، والذي يجمع في اقتصاد مختلط (بين قطاع عام ـ قطاع خاص ـ قطاع تعاوني)، وتنمية شاملة، مختلفًا في ذات الوقت مع الطريق أو التطبيق الماركسي في القضية الاقتصادية والنهج المتبع استهدافًا للعدالة الاجتماعية، وقد حدد بوضوح ميثاق عبد الناصر (الباب السادس «في حتمية الحل الاشتراكي»):

«إن سيطرة الشعب على كل أدوات الإنتاج لا تستلزم تأميم كل وسائل الإنتاج ولا تلغي الملكية الخاصة ولا تمس حق الإرث الشرعي المترتب عليها، وإنما يمكن الوصول إليها بطريقين:

أولهما: خلق قطاع عام وقادر يقود التقدم في جميع المجالات ويتحمل المسئولية في خطة التنمية.

وثانيهما: وجود قطاع خاص يشارك في التنمية في إطار الخطة الشاملة لها من غير استغلال.

على أن تكون رقابة الشعب شاملة للقطاعين، مسيطرة عليهما معًا.

في الوقت ذاته تبقى ملاحظتان مهمتان:

أولاهما: أنه لم يكن جمال عبد الناصر وحده في عالمه وعصره، من بين القيادات التاريخية أو القيادات الوطنية، في الدول التي استقلت حديثًا، الذي بحث عن صيغة جديدة مختلفة عن الصيغة التقليدية لليبرالية في قضية الديمقراطية، بل كان ذلك هو الشأن في جميع تلك الدول من آسيا إلى أفريقيا إلى أمريكا اللاتينية (ولعل نموذج الهند هنا، لظرف بالغ الخصوصية، يعد بالضبط من قبيل الاستثناء الذي يؤكد القاعدة).

وثانيهما: أنه لم يكن جمال عبد الناصر وحده في مصر، ومسار ثورة يوليو التي قادها منذ عام 1952، هو الذي لا يأخذ بالصيغة الليبرالية في الديمقراطية، إنما كانت أكثر وأبرز التيارات السياسية ـ الفكرية في الواقع المصري لا تأخذ بها كذلك (ونخص بالذكر هنا: جماعة الإخوان المسلمين. والحركة الشيوعية).

بل لم يقتصر موقف كلتيهما ـ الجماعة والحركة ـ على مرحلة البداية الأولى لمسيرة ثورة يوليو، ولا لحظة الصدام بينهما وثورة عبد الناصر في (مارس 1954)، إنما ظل ذلك موقف كل منهما وحاله على امتداد عصر عبد الناصر كله؛ أي عدم اقتناع أو اعتناق أي منهما على الإطلاق لصيغة التعددية الحزبية والحريات السياسية في مفهوم الليبرالية.

بل تؤمن جماعة الإخوان المسلمين ـ ومن لف لفها أو خرج من تحت عباءتها ـ بالحكومة الإسلامية والحكم الدائم لها باسم الحاكمية لله وشرع الله، وتؤمن الحركة الشيوعية بديكتاتورية البروليتاريا والحكم الدائم لحزبها الواحد باسم الطبقة العاملة الثورية التي تقود وتحمي الثورة والاشتراكية.

obeikandl.com

وحينما كانت كل من هذه الجماعة باسم الإسلام، وتلك الحركة باسم الاشتراكية، تطالب (في مارس 1954) بالتعددية الحزبية والليبرالية، لم يكن ذلك إيمانًا بها بالقطع، إنما فحسب لكي تتيح لكلتيهما، وجودًا حزبيًا حرًا ينمو وينطلق، لمجرد الوثوب من خلاله إلى السلطة، ولكي لا تتركها بعدها يومًا أبدًا.

وعلى الأقل فإن جمال عبد الناصر وحده لم يدَع «الليبرالية» مثلهما، ووحده كان صادقًا، أما من عداه فكان يدعي ويغش، يكذب ويناور، ولا يزال كل الذين يتباكون و«يولولون» من أجل التعددية والليبرالية والديمقراطية (التي ضاعت فرصتها النفيسة في مارس 1954) يكذبون، والأخطر أنهم يورثون هذا الكذب لقطاعات من أجيال متعاقبة، تتعلم استمرار واستمراء التباكي!.

5. إننا بذلك نقول أن الناصرية استطاعت أن تلتقي ـ من دون أن تفتعل، أو تلفيقًا «تنتقي»! ـ في نقاط التقاء (أو قضايا) أربع، مع كل من التيارات الفكرية/السياسية الأربعة الأساسية، التي سبقتها في مصر والوطن العربي، بل كان لها مفاهيمها المتميزة للقضايا محل الاتفاق، ورفضت في كل من هذه التيارات ما رأته من السلبيات، كما كان للناصرية إضافاتها الخاصة التي أبدعتها.

فتصبح الناصرية بذلك مختلفة، متمايزة، إلى حد بعيد عن كل من التيارات الأربعة.

لكن ليست الناصرية ـ كما قد يتبادر هنا إلى الذهن تسرعًا ـ هي (حاصل جمع) القضايا التي التقت فيها مع التيارات الأخرى، حتى مع أية إضافة مميزة خاصة لها، بل إن الناصرية هي (ناتج تفاعل) بين ما تبنته واستلهمته كله، وما أضافته وأبدعته، في مختلف القضايا والأبعاد ـ على مجمل الأصعدة والمستويات. وذلك ما أنشأها نشأً جديدًا، وبقدر ذلك هي خلق ونسق جديد: سواء كمنهج، أو كنظرية، أو كبرنامج.

أي سواء كمنهج علمي وفلسفي، ينتج (نظرية ثورية)، بتطبيق قوانينه العامة على واقع مجتمع في زمان ومكان محددين.

أو كنظرية ثورية، تنتج (برنامجًا سياسيًا)، بتطبيق أركانها الأساسية على ذلك الواقع في مدة معينة.

وكما يرد في دراسة حمدين صباحي التي لها أهميتها وقيمتها الخاصة: «الناصرية نظرية الثورة العربية»[28]:

«إن الإجابة واضحة أمامنا: إن الناصرية هي نظرية الثورة العربية التي تنطلق من المجتمع العربي في النصف الثاني من القرن العشرين لتقدم له تفسيرًا يستهدف تغييره فتحدد أولًا أن المجتمع العربي يعاني من مشكلة جوهرية واحدة لها أبعاد رئيسية هي الاستعمار والصهيونية والتسلط والتخلف والتفرقة الطبقية والتجزئة الإقليمية. وأن الحل الجذري الواحد لهذه المشكلة هو الحرية والاشتراكية والوحدة، وأن القوى الاجتماعية القادرة على التغيير هي تحالف قوى الشعب العربي العامل بقيادة الفلاحين والعمال، والقوى المضادة هي حلف الإقطاع والرأسمالية وأعوانهم في الحكم والصهيونية والاستعمار، وأن أداة التغيير هي التنظيم السياسي لقوى الشعب العامل بشقيه الشعبي والطليعي، وأن أسلوب التغيير هو الثورة العربية الشاملة... هذه هي المعالم الرئيسية للناصرية نظرية الثورة العربية كما يوضحها فكر ثورة 23 يوليو من خلال الوثائق».

ويقصد المؤلف «وثائق عبد الناصر»، فالدراسة تعتمد عليها وحدها، وتقف عندها. مشيرًا[29] إلى أن «.. مساهمات الحركة الناصرية، لم تزل بعدُ في حاجة إلى كثير من الإنضاج».

(28) عن مركز إعلام الوطن العربي «صاعد» 1992 . ص73.

(29) المصدر نفسه ص17.

وفي قضية «الثورة الشاملة ذات الجوانب المتعددة» تقول هذه الدراسة أيضًا بدقة واضحة[30]:

«إن هذه التجربة، تجربة ثورة 23 يوليو، قد استخلصت قانونًا جديدًا للثورة في المجتمعات المختلفة هو قانون «الثورة الشاملة»، وأسقطت الفهم الماركسي التقليدي عن الثورة التي يقسمها إلى مراحل ديمقراطية ثم اشتراكية. إن طبيعة العصر وطبيعة العالم المتخلف وتكوين مجتمعاته لم تعد تسمح لمثل هذا الفهم الماركسي بالقدرة على تفسير أو تثوير الواقع. لقد أصبحت الثورة الشاملة التي تختزل مرحلة الثورة الوطنية والديمقراطية ومرحلة الثورة الاشتراكية وتتصدى لمهامها معًا وتضيف إليها مهام التوحيد السياسي للأمم المجزأة، أصبحت هذه الثورة الشاملة هي الأسلوب الصحيح للتغيير في العالم الثالث كله. ولقد كان لثورة يوليو فكرًا وتجربة فضل إجلاء هذه الحقيقة وإثباتها..».

ثم.. كم هو نفَاذ ويبلور خلاصات قيمة، ما تحدث به عادة.. القائد العربي الثوري التاريخي أحمد بن بيلا عن الناصرية ـ وعن «ناصريته» ـ كما في كتاب «أحمد بن بيلا: حديث معرفي شامل». ويقول صادقًا المثقف العروبي اللبناني الكبير محمد خليفة، محاوره في هذا الكتاب المتفرد الذي حوى بين دفتيه حوارًا شاملًا باهرًا في جميع القضايا: «بن بيلا هو الثاني بعد جمال عبد الناصر.. من غير ثالث أو رابع مع الأسف!».

يقول أحمد بن بيلا:[31]

«الناصرية الانطلاقة الخصبة الأولى لفكرة العروبة وفكرة الوحدة. وكانت المواجهة الحقيقية الأولى مع الاستعمار.

(30) ص 68، 69.

(31) من كتاب «أحمد بن بيلا: حديث معرفي شامل» إعداد: محمد خليفة ـ دار الوحدة للطباعة والنشر. بيروت ـ 1985.

ثم كانت الفترة الناصرية، فترة إبداع وابتكار تاريخي على طول الساحة.

تحولت المبادرة التاريخية إلى أيدي العرب، وتحول الغرب للمرة الأولى للدفاع.

الناصرية هي الظاهرة الوحيدة التي برزت وقدمت للعرب شيئًا مهمًا جدًا جدًا، ويمكننا اليوم بثقة متابعة طريقها ومسيرتها.

الثورة العربية هي الثورة الناصرية، وما عداها، هو زيف في زيف. الثورة العربية هي الناصرية لأنها وحدها التي انطلقت وانتشرت في كل الساحات العربية، حتى ولو كنا أحيانًا لا نرى بذورها وآثارها في هذه الساحة أو تلك.

غيرت في العراق، غيرت في سوريا، غيرت في اليمن، غيرت في المغرب العربي.. أوجدت مقاييس جديدة وحداثة بحيث يستحيل الرجوع عنها إلى ما قبل الناصرية.

ولذلك فالناصرية أيضًا تيار تاريخي له حضوره المستمر.

بعد ذلك يدعون أن عبد الناصر سبب النكسة.. و.. و.. أنه انتهى بعد النكسة.. منهجيًا، وحقيقيًا، عبد الناصر هو حرب رمضان 1973، فنصر رمضان ـ أكتوبر، هو الامتداد التاريخي لجيوش الطلبة التي كونها وشكلها جمال.. من هم المهندسون والأطباء بمئات الألوف؟ من أين جاؤوا لولا أن عبد الناصر فتح المدارس والجامعات ثم بنى منهم القوات المسلحة؟.

ثم في مجال الثورة العربية.. أنا أشهد عليه، وأشهد على الثورة الجزائرية ـ وأظنني أدرى بهذه الثورة من غيري! أشهد بأن فضله على الثورة الجزائرية لا ينكر.

ويجب علينا في الجزائر ألا ننسى هذا الرجل حتى ولو تنكرت الأرض كلها له.. على كل حال فهذا في ذهن كل جزائري، ولن ننساه مهما تقلبت الأمور ومهما تكالبت الظروف.

بالنسبة لي إن عبد الناصر عملاق.

فالناصرية في تعريفها هي الوقفة العربية الأولى الصامدة الشجاعة أمام الغول الذي اسمه الاستعمار، وهذه الوقفة ما زالت مطلوبة وقائمة ومستمرة وضرورية لأن الاستعمار ما زال موجودًا.

«.. ثم ما معنى أن يخرج مع هذا الرجل بعد وفاته خمسة ملايين إنسان.. هذا عدد لا مثيل له في تاريخ البشرية.. حتى مع غاندي لم يخرج هذا العدد. ما معنى هذا؟ الشعوب لا تخطئ..».

obeikandl.com